

مدخل عام حول قضايا الأدب الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي

موجز للمراحل المتعاقبة لتاريخ الجزائر إلى الاستعمار الفرنسي:

الأمازيغ السكان الأصليين - الفينيقيون 1250 ق م - الرومان 146 ق م - 431 م أو 429 م - الوندال 430 م - الروم البيزنطيون من 533 م - إلى 646 م - الفتح الإسلامي 647 م
الرسومية و الأغالية 909-767 - الفاطمية 908 - 972 - الزييريون 972-1148- الحمادية 1007-1052 - المرابطون 1052 - 1147 - الموحدون 1121-1235 - الزيانيون 1235-1556

على طول التاريخ القديم ومشارف العصر الحديث عرفت الجزائر ألوانا متنوعة من الكتابات الأدبية وبلغات مختلفة حسب المرحلة التي سادتها وسياقاتها المتباينة.

وقد بات مسلما به أن الجزائريين في فترتهم الأمازيغية (الخالصة) مارسوا أشكالا متنوعة من الكتابة، غير أن التاريخ لم يحفظ أشياء كثيرة منها وتعرضت للإهمال في مختلف الفترات بما فيها فترات العهود الإسلامية. ومن المعروف أن هذا التراث لم تبق مؤشرات له إلا في إطار أدب شفهي لا يختلف عن آداب الشعوب الأخرى في فترات طفولتها، خاصة وأن الأمازيغ كانوا على اتصال بالأمم الأخرى كالفينيقين واليونانيين والمصريين، وبالفعل فقد عرفوا الكتابة ودونوا ما استطاعوا بحروفهم (تيفيناغ). غير أن الاستعمار الروماني قضى على كل فرصة لتطوير الأدب الأمازيغي بلغته وحروفه، وقد نقل عن المؤرخ ابن الرقيق القيرواني قوله: " **إن الرومان طمسوا العناوين والحروف القديمة التي وجدوها في أفريقيا عندما احتلوها ووضعوا مكانها عناوينهم وحروفهم حتى يخلدوا وحدهم الأمر المعهود للفاتحين...**"

وعلى الرغم من ذلك، فقد ترك الأمازيغ الجزائريون الأوائل تراثا هاما ضمنوه اهتماماتهم واهتمامات عصرهم وظروف مواقعهم الجديدة وإن لم يكن باللغة الأمازيغية، بل باللغة اللاتينية وهي لغة المحتل، لكنها لغة العصر والحضارة آنذاك أيضا.

ومن هنا فإننا نقلى عددا من الأعمال التي نوه مؤرخو الأدب بها مثل أعمال الروائي أبوليوس (أو أفولاي في النطق البربري) لوكيوس (أو لوسيوس) (*Apulée, Lucius Apuleius*) (ت 180م) (وهو من مداوروش قرب سوق اهراس) وقد اعتبر روائيا وشاعرا وخطيبا وفيلسوبا، ويبدو أنه سمى نفسه (أبوليوس المادوري الأفلاطوني) كما اعتبرت روايته (الحمار الذهبي) أو (التحولات) أول رواية في تاريخ البشرية. واشتهر في زمنه؛ إذ قال القديس أوغسطين عنه: " **عندنا نحن الأفارقة، أبوليوس هو الأكثر شعبية**". وأتقن اللاتينية واليونانية، ويقول: **إني لأنهض بالأمر كله على السواء باللسان الإغريقي أو اللاتيني بنفس الإقبال والثوق بنفس الجد وبنفس الطراز والأسلوب**". فالقضية اللغوية بالنسبة إليه ليست مطروحة

طالما أنه باق على أمازيغيته، أو بعبارة "تصف نوميدي ونصف جيتولي" وبالفعل لقد عبر عن انتماؤه لأمتة ووطنه بوضوح قائلا: "أنا لا أخرج من وطني، لقد كنا أقوى مع سيفاكس، ولكن، لما انهزم هذا الأخير، سلم الرومان مدينتنا إلى ماسينيسا، والآن نحن نمثل تجمعاً سكانياً رائعاً".

كما يذكر الراهب دونات (أو دوناتوس) (*Donat-Donatus*) أو (دوناتوس أمقران) (ت 335 م) وهو من أهم الأمازيغ الذين واجهوا الرومان وتمردوا عنهم وخاضوا ثورة وصراعاً مريراً ضدهم حتى مجيء الوندال، ودافعاً عن العقيدة المسيحية وأسس مذهباً مسيحياً ثورياً عرف بالدوناتية أو المذهب الدوناتى. وألف كتاب (الروح القدس). ولذلك اعتبر د/عثمان سعدي أنه "مات شهيداً دفاعاً عن الشعب الأمازيغي في مواجهة الاستعمار الروماني، مات في سجون روما بإسبانيا". وفي الموسوعة الفرنسية "Univesalis": "لقد تحول المذهب الدوناتى إلى ثورة ضد الظلم الاجتماعى والاحتلال الأجنبي، ولاقى صدى في الأوساط النواقة لاستقلال إفريقيا. وهو يشبه المذاهب القبطية والسورية، المؤسسة على الطبيعة الواحدة للمسيح. وقد اختلف عن الكاثوليكية في عدة نقاط، أهمها اللغة، فلغة الدوناتية ليست اللاتينية. كما اختلف عنها في وقوفه مع مطالب عمال الفلاحة البربر ضد اللوثيونات، هذه المطالب التي انضوت تحت المظلة الدوناتية. وبالرغم من أن هذا المذهب محافظ متشدد عقائدياً، إلا أنه يصنف كمذهب تقدمي اجتماعياً، حيث يرفض استعمال المسيحية من طرف الإمبراطورية الرومانية التي تتناقض أعمالها مع طموحات الفقراء". وقد استدعى ذلك جدلاً ونقاشاً طويلاً بين دونات وأتباعه من جهة وبين مؤيدي الرومان والكنيسة التقليدية من جهة أخرى خاصة من طرف خصمهم اللدود مواطنهم القديس أوغسطين.

إن القديس أوغسطين (أوريليوس أغسطينوس) (354-430 م) (*Saint Augustin*) السوق اهراسي هو أشهر شخصية مسيحية أمازيغية قديمة، وقد عاش حياة لاهية ماجنة في البداية وتلقى تعليماً قوياً بقرطاج وروما، ومارس التعليم في بلده ثم في ميلانو، أين انخرط في ديانة أمه المسيحية ويصير كاهناً ويعود إلى بلده أين أسس كنيسته الشهيرة بعنابة. ومن أهم أعماله (الاعترافات) و(مدينة الله) و(الثالوث الأقدس) ومئات المواعظ. ويذكر أنه كان يلقي مواعظه بالفينيقية أو الأمازيغية؛ لأن السكان كانوا يجهلون اللاتينية لغة النخبة، وينقل عنه أنه قال: *إن الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب؛ لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتها فحسب، بل لغتها أيضاً*.

إن الدراسة العميقة والضرورية للأعمال المتوفرة - مهما كانت لغتها - جديرة أن تكشف القضايا التي شكلت مدار اهتمام الجزائريين في تلك الفترة؛ ومن الواضح أن أعمال أبولوريوس وأوغسطين ونحوها احتل النقاش حول الدين ومسائله حيزاً كبيراً فيه خاصة وأن الفترة عرفت تحولات بسبب المسيحية وتبني روما لها، وكذلك بسبب المذاهب المسيحية الجديدة كالدوناتية (براج) مثلاً مدينة الله لأوغسطين ج1)، وقد ارتبط النقاش الديني أيضاً بموضوع السحر الذي انبنى عليه عمل أبولوريوس وراجعته حوله أوغسطين بل تمت محاكمته بسببه، وكل ذلك تفرع خلال النقاش من موضوع نظرة المسيحية إلى الشيطان والأساطير وممارسة السحر، لكن الدين يظل قناعة في نظر أبولوريوس محكومة بالنتائج فقد

تحول إلى دين آخر بسبب تحرره من المسخ. إن نظرة إلى تلك الأعمال تبين ارتباطها أيضا بمعاناة الانسان وبالعاطفة الانسانية والأخلاق، لكن بعض الصور كصورة المرأة والطبقات تبقى تقليدية جدا.

ومن المرجح ودون شك أن الأدب المحلي قد انسحب بسبب اللغة اللاتينية المهيمنة واتجه إلى حيز الثقافة الشعبية ليعبر بلغته الأم لكن في نطاق الشفهية ودون تدوين؛ مما سيؤدي إلى ضياعه أو ضياع الجزء الأكبر منه لكن مؤشراتته تبقى ضمن الأدب الشفهي.

هذه هي الصورة والظروف التي تم فيها إنتاج وتداول النص الأمازيغي الجزائري في القديم ولم يكن يتوقع ظهور أدباء محليين بعد مجيء الاسلام مباشرة، خاصة وأن اللغة العربية احتلت الصدارة مع فارق جوهري عن اللاتينية أو اليونانية كونها - بسبب الدين واستعمالها في العبادة- لغة أخرى للشعب الجزائري يتعلمها بسبب تعلم الدين الجديد وللانسجام مع الادارة الجديدة.

هذه حوافز أساسية ستجعل عملية اكتساب اللغة سريعة كما حدث أيضا في مصر وفارس ونحوهما، رغم أن عملية تعريب المنطقة ستحتاج إلى وقت طويل. وبالفعل ما أن بدأت تتأسس دول مستقلة كالرستمية والأغلبية ثم الفاطمية حتى بدأت تظهر مشاركات علمية وأدبية متنوعة لأدباء جزائريين محليين بالعربية. لكنهم خلال عهود الدول المحلية البربرية كالزيرية والحمادية والمرابطية والموحدية والزيانية باتوا مشاهير مبرزين تركوا أعمالا خالدة باللغة العربية.

ومن الطبيعي أن تتم استعادة القيم التقليدية المشرقية واهتماماتها ضمن هذا المسعى بدءا من المدح والثناء ونحوها، لكن الباحث يلحظ تركيزا كبيرا على المنظومة الفكرية الدينية التي تبدأ من تمجيد العلم إلى الزهد وقضايا العقيدة حتى ينتهي إلى التصوف والأمادح النبوية، بل إن النزاعات السياسية (المشوبة بالعقيدة) احتلت في البداية حيزا معتبرا لكنها خفتت فيما بعد وظهر توجه إلى روح المجموع والوطنية أو القومية الاسلامية خاصة في فترات الصراع مع النصارى الصليبيين.